العلم والتفكير العلمي والإرهاب

قدري حفني

الكلمات المفتاحية: قدري حنفي، العلم والتفكير العلمي، الإرهاب.

حدث أن دعاني الصديق الأستاذ الدكتور محمد شعلان، أستاذ الطب النفسي عام 1979، لتدريس مقرر في "مناهج البحث العلمي" لطلاب الدراسات العليا بكلية طب الأزهر (بنين) واستمرت تلك اللقاءات حتى عام 1984، ولم ألبث أن تلقيت دعوة مشابهة من الصديق الأستاذ الدكتور حامد الموصلي أستاذ الهندسة لإلقاء سلسلة من المحاضرات حول نفس الموضوع لطلاب الدراسات العليا بكلية هندسة جامعة عين شمس في العام الدراسي1985-1984، وأتاح لي الصديق الأستاذ الدكتور يحيي الرخاوي أستاذ الطب النفسي أداء المهمة نفسها بالنسبة لطلاب الدراسات العليا بكلية طب جامعة القاهرة في العام الدراسي1993-1992 ، كما تفضل الصديق الأستاذ الدكتور المرحوم عادل صادق بدعوتي للمشاركة عدة مرات في اللقاءات العلمية مع طلاب الدراسات العليا بكلية الطب جامعة عين شمس. لقد آثرت أن أشير إلى أسماء هؤلاء الأساتذة الأفاضل لكي يتضح للقارئ أنهم جميعًا أساتذة إستثنائيون لا يمثلون القاعدة بحال.

لقد شهدت تلك الأعوام في بلادنا بداية وتصاعد الإرهاب فكرًا وممارسة، وأتاحت لي لقاءاتي المنظمة مع طلاب الدراسات العليا في كليات القمة أن أحاول البحث عن إجابة لسؤال الذي كان يؤرقني: لماذا كان قادة ورموز وممارسي الإرهاب من بين دارسي تلك التخصصات تحديدًا؟ وعاد السؤال يلح علي من جديد مع ما نشر من أن مرتكب جريمة حي الأزهر الأخيرة من طلاب إحدى كليات الهندسة. وعدت إلى أوراقي القديمة أحاول مراجعة ما بدا لي تفسيرًا.

لقد كان أبنائي من دارسي الطب والهندسة، يعدون استثناءً بحكم تأثرهم بأساتذتهم الذين أقدموا على مغامرة أظنها لم ولن تتكرر بدعوة أستاذ من كلية الآداب متخصص في علم النفس للحديث عن مناهج البحث العلمي لطلاب متفوقين أكملوا دراستهم الأساسية، ويستعدون لاستكمال دراساتهم العليا المتخصصة في كليات لا تعرف سوى العلم. ورغم استثنائية الطلاب والأساتذة على حد سواء، فما زلت أتذكر نظرات التشكك والريبة بل والاستنكار والرفض الصريح أحيانًا لحديث يدور حول "أسس التفكير العلمي" وكيف أنه يقوم علي التراكمية بمعنى أننا نكمل ما انتهى إليه من سبقنا، وكيف أن هذه التراكمية تعني بالضرورة التسليم بأن ما نعرفه من "حقائق" يظل كذلك إلى أن نتجاوزه أو يتجاوزه غيرنا ليصبح في عداد القديم، وأن "التفسير العلمي" قابل للجدل دائمًا، بمعنى أن صحته نسبية، وأن علميته إنما تتوقف على قبوله الدائم بالخضوع للتفنيد أي الاختبار للتأكد من صحته أو خطأه، وأن عجزنا عن تفسير ظاهرة ما لا يعني بالضرورة استحالة تفسيرها بشكل مطلق، كما أنه لا يعني حتمية قبولنا بأي تفسير مطروح ما لم تتوافر فيه الشروط العلمية وعلى رأسها القابلية للتفنيد، وأن التوصل إلى الحقيقة العلمية يقتضي الحذر من مخاطر الانبهار بالشيوع أو بالقدم إلى آخر

تفاصيل شروط التفكير العلمي وعلى رأسها نسبية الحقيقة.

واتضح لي أن هؤلاء الأبناء معذورون. فهم وفقًا لنظامنا التعليمي لم يتلقوا طيلة سنوات تعليمهم من مرحلة الحضانة إلى مرحلة الدراسات العليا مقررًا دراسيًّا واحدًا يتعلق بالمنطق أو الفلسفة أو تاريخ الفكر أو ما إلى ذلك من موضوعات تحمل شبهة تعليم المنهج العلمي. وكان طبيعيًّا والأمر كذلك، أن ترسّخ لدى هؤلاء الأبناء عقيدة مؤداها أن التفكير لا يحتاج إلى تعليم، وأن تمحيص الأفكار لا يحتاج إلى تدريب، وأنه يكفي للتسليم بصواب فكرة معينة أن تبدو منطقية، أو أن تصدر عن مصدر ثقة، أو أن تتفق مع مشاهدات "واقعية"، أو أن تكون متكررة لزمن طويل. وتزداد طمأنينة هؤلاء الأبناء ليقينهم في ظل نظام تعليمي يقوم بالنسبة لكل التخصصات علي التلقين، ويتوقف فيه النجاح على القدرة على الحفظ ثم التسميع. ولعل شيوع ذلك المنهج التلقيني في نظامنا التعليمي بل ونظامنا الاجتماعي السياسي بعامة هو ما يفسر أن جاذبية الفكر التكفيري لم تقتصر بشكل قاطع على أبناء التخصصات العلمية وحدهم. غير أن ما يستلفت النظر حقًّا هو أن قوائم قيادات وممارسي الإرهاب تكاد تخلو تمامًا من أبناء التعليم الأزهري ربما باستثناء الشيخ عمر عبدالرحمن. ولا يستطيع أحد أن يزعم أن هؤلاء الأبناء قد اقتربوا بشكل أو بآخر من علوم الفيزياء أو الرياضيات، كما أن أحدًا لا يستطيع أن ينكر أنهم أقرب للإنتماء إلى الفئات الأكثر فقرًا والأشد معاناة من جماهير شعبنا. كما أننا نستطيع أن نراهم أميل للتحفظ حيال المستحدث من أنماط السلوك ومستجدات العصر، وأنهم أميل للنظر لأنفسهم باعتبار أنهم حماة تراث مقدس لا يأتيه الباطل.

تُرى لماذا إذًا لم يجتذبهم ذلك الفكر الديني المتطرف وهم الأكثر إتفاقًا لمفرداته والأكثر ألفة بجذوره، والأكثر مصداقية إذا ما صدر عنهم؟ ترى لماذا لم يخرج من بين صفوفهم مثلًا الدكتور أيمن الظواهري خريج طب عين شمس وصاحب كتاب **الولاء والبراء** الذي استهوى حسن بشندي طالب هندسة الزقازيق وصاحب جريمة الأزهر الإرهابية الأخيرة.

لقد كان التفسير الذي توصلت إليه آنذاك هو أن طالب الأزهر منذ البداية الأولى لتعليمه الأزهري يعتاد سماع أساتذته خلال عرضهم لآراء المذاهب المختلفة حول قضية مطروحة مبينين الرأي الذي يرونه أقرب إلى الصواب مختتمين حديثهم بتلك العبارة بالغة الدلالة "والله أعلم"، ومع مضي السنوات يصبح ذلك التعبير ضمن مفردات طالبنا الأزهري. لا يزعجه اختلاف الاجتهادات ما دامت لم تتجاوز حدود اليقين الذي يلتزم به، أو بعبارة أخرى فإنه يجد يقينه متسعًا ولو بمقدار لتباين وجهات النظر ويظل متمسكًا حتى النهاية بأن "الله أعلم".

لقد أتيح لي قراءة كتاب الدكتور أيمن الظواهري المشار إليه وافتقدت بشدة تعبير "الله أعلم" الذي لم يرد سوى مرات ثلاث على وجه التحديد ضمن كلمات الكتاب التي تجاوزت إحدى عشر ألف كلمة (1165 كلمة) وقد ورد التعبير في المرات الثلاث الاستثنائية ضمن نصوص لابن كثير والشافعي، ثم على سبيل التصحيح لعبارة وردت في كتاب

المحلي، أما فيما عدا ذلك فالأحكام والتفسيرات قطعية يقينية مطلقة.

ولقد شاهدت مؤخرًا على قناة النيل الثقافية حوارًا ممتعًا حول البنوك الإسلامية والبنوك الربوية، وشارك في الحوار عدد من علمائنا الأزهريين الأفاضل الذين أبدوا اختلافهم مع آراء صادرة عن زملاء لهم ينتمون للأزهر أيضًا، وليس من بأس في ذلك، غير أنني حاولت طوال المشاهدة أن ألتقط ولو لمرة واحدة تعبير "الله أعلم" يرد على لسان أحدهم فلم أستطع. كان المتحدث موقنًا يقينًا قاطعًا بصواب موقفه وسلامة حججه وفساد رأي زملائه المنتمين لنفس المؤسسة الدينية الأزهرية. ولقد تكررت مشاهداتي لمثل تلك النوعية من البرامج مؤخرًا، وافتقدت بشدة ذلك التعبير القرآني الإسلامي العظيم "الله أعلم". ذلك التعبير الذي بدا لي يومًا بمثابة الواقي لأبناء الأزهر من الفكر التكفيري.

تُرى ما الذي تغير؟